

الجامعة العربية وأسرها الجغرافية والتاريخية

الدكتور سالمه عزين

أثار تكوين جامعة الدول العربية اهتماما كبيرا في العالم خلال الأعوام الأخيرة ، وإن اختلفت وجهات النظر ، وتباينت البواعث على هذا الاهتمام . فقد نظرت كثرة أهل المشرق العربي إلى تأليف الجامعة على أنه أمل تحقق ، وتطلع غير قليل ممن يتكلمون العربية من أهل المغرب الأفرقي وبمض جهات آسيا العربية ذاتها إلى الانضمام إليها على أنه أمل يرتجى ، ووقف العالم الخارجى بين مشجع لهذه الحركة الجديدة ومحيد لها ، وبين معارض لها ولل فكرة من قيامها ، أو محيد يكاد لا يهتم لشأنها بأكثر من أن ينظر ليرى ما يكون من أمرها فى المستقبل .

ولسنا نود هنا أن نعالج موضوع الجامعة من حيث إنها أمل تحقق أو رجاء يرتجى ، ولا من حيث إنها حادث دولى نرتقب نتائجه ، وما عسى أن يكون من أمره . فذلك كله من شأن أهل السياسة ، وقد يكون من الخير أن نفرغ إلى معالجة الموضوع من ناحية الدراسة الخالصة . فهما قيل عن الجامعة وضرورة قيامها كدعامة من دعائم السلم فى الشرق الأوسط فإن مصيرها إنما يرتبط فى الحقيقة بالمقومات الأساسية التى يستند إليها وجودها كهيئة تألف من مجموعة مترابطة من الأمم ذات المواقع الجغرافية المتجاورة والتاريخ البشرى المتداخل والمصالح المادية المتشابهة . وهذه المقومات الجغرافية والتاريخية تمثل عنصرا دائما ثابتا لا يتغير كما تتغير الظروف والملاسات السياسية العارضة . وإذا نحن نظرنا إلى الجامعة ودرسناها من هذه الناحية التى تكشف عن الأسس والمقومات ، فإننا نخرج بصورة تسمح بالحكم على ضرورة قيامها حكما يستند إلى الحقائق الثابتة أكثر مما يستند إلى الأعراض التى قد لا تلبث أن تتغير أو تزول .

لذلك كله رأيت أن أعرض للجامعة كما يمرض لها باحث الجغرافيا أو دارس التاريخ . ولعل فى هذا النحو من الدراسة ما يلقى ضوءا جديدا على هذه الجامعة الناشئة ، يبرزها فى وضعها الصحيح ، أو فى اقرب منه ، ويكشف لنا عن مكامن القوة وعوامل الدوام فيها ،

رغم ما قد يمترض سيرها من الناحية السياسية بين حين وحين بل يكشف لنا بقدر المستطاع عن قيمة هذه المنظمة واحتمالاتها الكامنة ، ومنزى تكوينها بالنسبة لأهلها من جهة ، وبالنسبة للعالم الخارجى من جهة أخرى .

ولعل أول ما ينبغى أن نسجله من الناحية الجغرافية أن الشرق العربى يحتل موقعا جغرافيا فذاً فى قلب العالم القديم ، تلتقى عنده قارات ثلاث هى آسيا وأوروبا وأفريقيا ، التى كان لكل منها دورها الخاص فى تاريخ البشرية ، ويمتد من سواحلها من الشمال بحر قديم كان مهذاً لكثير من مظاهر المدنية القديمة والحديثة هو البحر الأبيض المتوسط ، الذى امتاز بهدوء مياهه ، وانتظام ريحه وانتشار جزره ، وكثرة تعاريج سواحلها وخلجانها ، حيث قامت المرافئ والموانئ منذ أقدم العصور . كذلك يتوغل فى هذا الشرق العربى من الجنوب ذراعان للمحيط الهندى والبحر العربى ، هما البحر الأحمر وخليج فارس ، وقد ارتقت كلا منهما سفن الملاحة آتية من بحار الهند والشرق الآسيوى البعيد ، أو من شرق أفريقية . ولسكن المهم أن الاتصال البحرى لم يكن تاماً بين بحار الجنوب وبحار الشمال ، وإنما قطعت بين تلك البحار أرض الجزيرة العربية الشمالية ، فكان لازماً أن تمر المتاجر بالبر فى تلك المرحلة ، ومن هنا أصبح لسكان تلك المنطقة التحكم فى المواصلات العالمية منذ القدم . ولو أن الجزيرة العربية كانت جزيرة بالمعنى الجغرافى المعروف ، فأحاطت بها المياه من كل جانب ، واتصل البحر المتوسط ببهار الجنوب لتغير وجه التاريخ تغيراً تاماً ، ولما كانت لشبه جزيرة العرب وما يتصل بها من بلاد وأقطار تلك الأهمية الفريدة فى تاريخ المواصلات العالمية وفى علاقات الشرق بالغرب والشمال بالجنوب .

والحق إن هذا الشرق العربى فى جنوب غرب آسيا وشمال شرق أفريقية قد لعب بموقعه الجغرافى دوراً خطيراً فى تاريخ الاتصالات العالمية وتاريخ البشر بوجه عام ، وساعده على ذلك أنه كان مهذا لكثير من الحضارات القديمة فى مصر وبلاد الشام وسومر وبابل وآشور وعمان وبلاد اليمن ، كما نشأت فيه عدة إمبراطوريات امتد نفوذها وسلطانها إلى الشرق أو الغرب ، أو إلى الاثنين معا . وكان فوق ذلك مهبط الديانات السماوية الثلاث ، فيه نشأت ومنه انتشرت ، ومبعث كثير من ألوان الفكر والثقافة العالمية التى بقيت على الزمن . ولو أننا نظرنا إلى تاريخ الإنسانية المكتوب وحسبنا أنه يمتد خلال خمسة آلاف عام أو نحو ذلك ، لسكان من الطريف أن نذكر أن هذا الإقليم الذى نحن بصدده — أو أن أجزاء منه على أقل تقدير — كانت مركز القوة السياسية الأول ومبعث الثقافة والعلم والمعرفة الإنسانية خلال

ما يقارب ثلاثة أرباع تلك الفترة . ولو قيس أهمية أقاليم وجه الأرض في تاريخ البشر بطول الحقيقة التي كانت فيها كل منها مركز السلطان ومبعث المعرفة ، لسكانت لهذا الإقليم السكّانة الأولى بين الأقاليم . ولعل من الخير والإنصاف أن نتمثل هذه الحقيقة البسيطة أمام أعيننا ، حتى لا يضلنا تغيير الظروف والأحوال في الوقت الحاضر والزمن الذي نعيش فيه ، فلا ندرك أهمية إقليمنا ولا نقدر مكانته العالمية على وجهها التاريخي الصحيح .

ويتألف هذا الشرق العربي في داخلية من نواة صحراوية أو شبه صحراوية ، تقل فيها الأمطار ولا ينتظم سقوطها ، وتمثل فيها حياة البادية العربية المعروفة ، فلا يستقر بها السكان إلا في عدد من الواحات أو حول الآبار . وقد اخترقت تلك النواة منذ فجر التاريخ طرق القوافل ، التي سار عليها حداثة الإبل ووسطاء التجارة ، فنقلوا السلع والمتاجر ، وحملوا معهم أنواع الفكر والثقافة ، فكان ذلك الاحتكاك المثمر في بعض الواحات ومراكز الاتصال ، ولتمتحت المدنية الخارجية حياة العرب وحضارتهم منذ البداية . كما استطاع البدو وتجارهم أن ينشروا نتاج بثهم الفكري إلى الخارج وكان هؤلاء التجار فوق ذلك وسطاء ثقافة ، حملوا رسالة الفكر والمدنية بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وبين أهل البحار المعتدلة والباردة وأهل البحار الدفيئة والحارة . ولم يكن غريبا بعد كل هذا أن ترتبط التجارة والثقافة في حياة العرب وسكان الجزيرة الداخلية ذلك الارتباط القوي المعروف .

وعلى جانبي تلك النواة الصحراوية الداخلية التي تمثل قلب الشرق العربي ، والتي لم تكن نواة صماء ، وإنما اخترقتها الطرق في جميع الاتجاهات ، ونفذت إليها الحياة الخارجية من كل سبيل ، كان هناك نطاقان من الحياة المستقرة في أراض يزيد فيها المطر زيادة نسبية أو يتوافر بها الماء من المجارى والأنهار . ويحف أحد النطاقين بالنواة من جهة الجنوب ، لاسيا الجنوب الغربي والجنوب الشرقي ، كما يحف بها النطاق الآخر من جهة الشمال ، ويمتد خارج الجزيرة إلى الشمال شرق أفريقيا ، ففي جنوب صحارى بلاد العرب ونجادة الوسطى كانت هناك اليمن وحضرموت وعمان وهي كلها مراكز لحضارات قديمة قبل الإسلام . فقد نشأت في اليمن وأطراف حضرموت الحضارات المينية والسبئية والحيرية في ألف السنة السابقة ليلاد المسيح والخمسمائة السنة اللاحقة به . ونشأت في عمان حضارة أخرى قديمة لا نعرف عنها الشيء الكثير ولكن بعض الباحثين يرى أنها ربما كانت أقدم من حضارة اليمن ، وأنها كانت على اتصال بأجزاء مختلفة من الجزيرة ، بل إن السومريين أنفسهم ربما جاءوا في الأصل من تلك البلاد أو من جوارها قبل أن يستقروا في جنوب العراق . وسواء أصبح هذا أم لم يصبح ، فإن

اتصال سكان الجزيرة الجنوبيين في عمان وحضرموت واليمن بسكانها الشماليين أمر تاريخي قديم لا جدال فيه ، وقد اشتد ذلك الاتصال بنوع خاص في العصر الجاهلي وبعد ظهور الإسلام . وكان لهؤلاء الجنوبيين فضل كبير في نشر الثقافة العربية والدين الإسلامي بالبحر إلى شرق أفريقية وجنوب آسيا وجزر الملايو وأندونيسيا ، فكانوا بذلك رسل الثقافة العربية ودعاتها فيما وراء البحار ، وقد عرف الحضارة منهم بنوع خاص بأنهم « فينيقيو البحار الجنوبية » .

ومع ذلك فإن الجامعة العربية بتكوينها السياسي الحالي لا تشمل من جنوب بلاد العرب غير اليمن ، في حين أن الظروف الطبيعية والبشرية والتاريخية تقضى كلها باعتبار حضرموت وعمان منطقتين متممتين لهذا الشرق العربي من ناحية الجنوب . ولا بد أن ننتظر اليوم الذي تنضم فيه تلك البلاد إلى الجامعة ، إذا أرادت هذه الأخيرة أن يتسق تكوينها السياسي مع تكوينها الجغرافي ، وأن تستكمل مقوماتها الطبيعية والتاريخية جميعا .

كل هذا عن النطاق الذي يحف النواة الصحراوية من ناحية الجنوب . فأما النطاق الشمالي ذو الحياة المستقرة والدنيات الحضرية القديمة فيشمل ما يعرف باسم « الهلال الخصيب » كما يمتد إلى شمال شرق أفريقيا ، لتدخل ضمنه مصر ووادي النيل الأوسط في السودان . فأما الهلال الخصيب فيتألف من منطقة تمتد على شكل هلال مفتوح نحو الجنوب ، تتوغل فيه بادية الشام . ولهذا الهلال شقان هما العراق والشام بمعناها الأوسع . والعراق في جملته سهل منبسط تحف به الجبال في الشرق والشمال ، وتجري فوقه أنهار دجلة والفرات وقارون وروافدها المنحدرة من الجبال . وقد نشأت بالعراق منذ القدم حضارات متتامة ، كان بعضها في أسفله مثل سومر ، وبعضها في وسطه مثل بابل ، وبعضها في أطرافه الشرقية مثل آشور . ولكن المهم أن العناصر السامية استطاعت في النهاية أن تكتسح معظم أراضيها اكتساحا ، وأن تصبغها بالصبغة السامية ، حتى إذا ما جاء العرب وتوسعوا من داخلية الجزيرة قبل الإسلام وبعده ، لم يلقوا عناء كبيرا في أن ينشروا فيه لغتهم ودينهم وثقافتهم ، وفي أن يتخذوا منه قاعدة ينشرون منها معالم تلك الثقافة نحو الشرق إلى إيران وتركستان . واستطاع العراق في العهد العربي بمختلف أدواره أن يكون وحدة ثقافية ، حتى إذا ما جاء العهد الحديث كانت هذه الوحدة الثقافية عاملا هاما في وحدته السياسية رغم وجود بعض العناصر الكردية وغير العربية في أقصى الشمال .

أما الشق الثاني من الهلال الخصيب فأكثر تعقيدا من الشق العراقي ، لأن الطبيعة

تجعل منه سهلاً مستويًا تجرى فوقه الأنهار تربط بين مختلف أجزائه ، وإنما جعلت منه إماماً معقد السطح والتضاريس . ففي شماله توجد سلاسل لبنان الشرقية والغربية ، التي تفصل بين سوريا وسواحل لبنان ، والأولى ذات حوضان ومنهول داخلية تتجه نحو البادية ، وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً . أما لبنان فإن سفوح جباله الغربية وسهله الساحلي الضيق تتجه نحو البحر المتوسط ، وترتبط حياتها به ارتباطاً يرجع إلى أيام الفينيقيين . ولقد تأثر ساحل لبنان أكثر مما تأثر غيره من أقاليم الشرق العربي بحياة اللاجئين في شرق البحر المتوسط ، وبثقافة الإغريق والروم الشرقيين ، وظهرت آثار ذلك في العهد المسيحي ، وفي الكنائس الطائفية التي لا تزال قائمة حتى الآن .

وإلى الجنوب من سوريا ولبنان هنالك شرق الأردن وفلسطين ، ويقسمهما منخفض الأردن والبحر الميت . وقد يكون من المهم هنا أن نلاحظ الفرق الكبير في التكوين الطبيعي بين ساحل فلسطين من جهة وساحل لبنان شمال حيفا من جهة ثانية ، فالأول رملي منخفض تكثر به الرواسب ، ويكاد يخلو من المرافق الطبيعية الصالحة ، وإنما ترجع أهميته إلى الطرق البرية التي كانت تخترقه ، أو تسير على طولها وترتبط ما بين مصر وشبه جزيرة سيناء من ناحية ، وداخلية الجزيرة العربية الشمالية وبقية أرض الهلال الخصيب من ناحية أخرى . أما ساحل لبنان من حيفا شمالاً فسخري في أكثر أجزائه ، ويوجد به عدد من المرافق الطبيعية التي لا تزال تستعمل في الوقت الحاضر مثل بيروت . وقد مثل هذا الساحل على الدوام المدخل البحري الأساسي لتجارة الشق الشامي من الهلال الخصيب ، واستطاع أن يحتفظ بمكانته هذه على مر العصور . فكما تحكم الفينيقيون في تجارة مملكة سليمان البرية التي كانت تشمل أراضي فلسطين والشام الداخلية ، كذلك استمرت موانئ لبنان ومرافقه السواحلية متحركة في تجارة الشرق الأدنى في العصور الوسيطة ، ولا تزال في الوقت الحاضر نفس اعتماد سوريا الداخلية على بيروت (والاسكندرونة قبل أن تضم إلى تركيا) في تجارتها البحرية . ولذلك كله فقد يكون من الخير في معرض الحديث عن التكوين السياسي والقومي لسكنى سوريا ولبنان أن نجتمع بين حقيقتين لا سبيل إلى الأخذ بإحدهما دون الأخرى : فأما الحقيقة الأولى فإن مقتضيات البيئة الطبيعية والتوجيه الإقليمي والتاريخ الثقافي تقضي بأن يكون لسكنى منهما كيانهما القومي والسياسي والمستقل . وأما الحقيقة الثانية فإن مقومات الحياة الاقتصادية السليمة والمصالح المادية المشتركة تقضي بأن يكون بينهما أوثق الاتصال ، وبأن يكونا بمثابة الشقيقتين التوأمين في أسرة الأمم العربية .

فإذا ما نحن خرجنا من الجزيرة العربية بمعناها الجغرافى الضيق ، وانتقلنا إلى شمال شرق أفريقية وجدنا أرض وادى النيل التى ارتبطت فى تاريخها الطويل بالشرق الأسيوى المجاور ، وكانت فوق ذلك واسطة الاتصال بينه وبين الخارج فى بعض أدوار ذلك التاريخ . والحق إن الجغرافيين المحدثين لا يفرقون الآن بين شمال شرق أفريقية وجنوب غرب آسيا ، فهى كلها تؤلف إقليما جغرافيا واحدا ، رغم وجود البحر الأحمر بينها . وقد وثقت الطبيعة الصلة بين مصر وغرب آسيا ، فأعدت طريقا طبيعيا سهلا يصل بينهما ، ويسير على طول الساحل الشمالى لشبة جزيرة سيناء ، حيث تسقط الأمطار فى فصل الشتاء ، فتختزنها كثبان الرمال المنتشرة على الساحل ، لتغذى بها المياه الجوفية طول العام ، وبذلك كثرت الآبار وتوافرت المياه على طول الطريق . وقد كان طريق سيناء الشمالى هذا هو طريق الغزوات السامية العديدة التى جاءت من الشرق إلى مصر فى أيام قدماء المصريين كالهكسوس وغيرهم . ثم جاءت عنه غزوة العرب وهجرات قبائلهم خلال العهد الإسلامى ، وكذلك خرجت على طول هذا الطريق غزوات المصريين وحملاتهم إلى الشرق القريب فى أعصر التاريخ المختلفة ، ولا تزال لهذا الطريق أهميته العسكرية الكبرى ، فهو مفتاح مصر من ناحية الشرق ، وفيه تسير الآن سكة حديد فلسطين ، وجانب من طريق السيارات البرى الجديد . وكلما سهل الاتصال وتيسر من هذا الطريق استوثقت العلاقة بين مصر وجاراتها العربية ، وبرزت قيمة اهتمام مصر بشؤون تلك الجارات . ولا بد هنا من أن نشير بصفة خاصة إلى موقع فلسطين عند طرف مدخل مصر الشرقى . ذلك أن فلسطين هى الجارة الوحيدة المباشرة لمصر من بلدان الشرق العربى ، فحدودها البرية من الشرق لا تلاصق بلدا غيرها ، ولا يمكن أن يتم الاتصال البرى بيننا وبين بلدان هذا الشرق إلا عن طريق أرض فلسطين ، وإذن فإن فلسطين إن هى بقية خارج نطاق الجامعة العربية الجديدة تستطيع أن تكون حاجزا حقيقيا بين مصر وبقية بلدان الجامعة ، فتعوق مثلا تنفيذ أية اتفاقية تجارية لتيسير تبادل المنتجات والتاجر ونقلها بين أقطار الجامعة ، أو تعوق مرور قسم من أنابيب البترول السعودية إلى إحدى موانئ سواحل مصر للتكرير والتصدير ، أو تعوق أية اتفاقية لتيسير مرور المسافرين بالبر بين مصر والشرق ، أو غير ذلك من الحالات التى قد تبدو افتراضية محضة فى الوقت الحاضر ولكنها قد تصبح واقعية ومؤلة .

وفوق ذلك فإن لفلسطين قيمة أخرى بالنسبة للعلاقات بين مصر وجاراتها العربية ، فهى تعتبر قاعدة عسكرية من الدرجة الأولى ، وتستطيع أية سلطة تسيطر عليها أن تهدد كيان

الشرق العربي كله ، ولعل في ذلك ما يكشف لنا عن ضرورة التعاون الشامل بين أمم الشرق العربي وشعبه إن هي أرادت أن تحفظ كياناتها بعد أن تغيرت بعض الأوضاع العسكرية في هذا القسم الخطير من العالم .

على أن هذا الأمر فيما يتصل بمصر لا يقف عند أنها كانت وثيقة الصلة ببقية الشرق العربي ، ولا عند أنها تكون جزءاً أساسياً من هذا الإقليم الذي تشغله بلدان الجامعة ، وإنما يجب في الوقت نفسه أن نلاحظ أن مقومات الحياة في مصر ذاتها ترتبط بفاحية ثانية غير الشرق الآسيوى ، هي وادى النيل من ناحية الجنوب . فقد قضت الطبيعة أن تمتد حدود مصر « الحيوية » في هذه الجهة الأخيرة إلى أبعد كثيراً من حدودها « السياسية » . ولذلك كان على مصر أن تستمسك بصلاتها ومصالحها في الجنوب استمساكها بصلاتها ومصالحها مع الشرق . بل لذلك كان اتصال مصر بالجنوب قديماً قدم اتصالها بالشرق . وكما كان ذلك الاتصال بالشرق قائماً على تبادل المنفعة والتجارة ، واحتكاك الفكر ، وانتشار الثقافة ، كان قائماً كذلك على هذه الأشياء جميعاً ، وعلى شيء آخر فرضته الطبيعة فرضاً ، فأحسه المصريون إحساساً واستجابوا له بفطرتهم ، فاتجهوا نحو الجنوب لأنه مصدر الحياة ، ونشروا حضارتهم فرعونية ومسيحية وإسلامية في ربوع السودان . بل تخطوه إلى بلاد أخرى في شرق أفريقيا وترتب على ذلك كله أن توطدت الصلات البشرية ، وتمكنت الروابط التاريخية ، فأضفت على الوحدة الجغرافية قوة جديدة ، لا بد أن تنتهى مهما طال الزمن ، ومهما كثرت المراقيل المصطنعة ، إلى أن يتصل ما قضت الطبيعة — وما أمر الله به — أن يوصل بين مصر والسودان ... وإلى أن يتم ذلك ينبغى أن نواجه الحقيقة الزدوجة ، والتي لا يمكن تجاهلها ، وهي أن مصر لن تجسد أمنها كاملاً ، إن هي اكتفت بتحقيق صلاتها المكنية مع الشرق العربى الآسيوى دون أن تستكمل وحدتها في الجنوب ، وإن هذا الشرق العربى ذاته لن يجد قوته كاملة ما لم تكن مصر والسودان معا عضواً أساسياً عاملاً في جامعة أمم الجديدة .

والآن وقد فرغنا من استعراض الروابط الجغرافية والتاريخية بين مختلف أقطار الجامعة نستطيع أن نعرض في إيجاز الحركة التى انتهت بتأليف الجامعة ، فقد يثير ذلك التاريخ سبيلنا في تحقيق مغزى هذه الحركة وتحديد أهدافها ومراميها واستشفاف بعض ما قد ينتهى إليه أمرها في المستقبل . وهذه الحركة كغيرها إنما جاءت وليدة تطور يعطى في الفكر والتنظيم داخل نطاق العالم العربى في الشرق القريب ، ونطور يعطى أيضاً (وإن لم يغفل من مفاجآت وتحولات سريعة أحياناً) في علاقة سكان ذلك الشرق والعالم الإسلامى عامة بالعالم

الخارجي . وقد نذكر أن انتشار الإسلام اقترن منذ البداية بحركات سياسية كبرى سببت إنشاء الإمبراطوريات والممالك العربية المتتابة ، ورغم قلب السيادة وانتقالها في النهاية من أيدي العرب إلى أيدي الأتراك ، ودخول الشرق إثر ذلك في عصر مظلم ، سادته الأنحلال والركود ، فقد احتفظ العالم الإسلامي في جملته باستقلاله السياسي خلال قرون ثلاثة أو تزيد ، حتى إذا ما انتهى القرن الثامن عشر وطلع القرن التاسع عشر وجاء نابليون بحملته المشهورة على مصر والشرق العربي ، كان ذلك فاتحة عهد جديد ، إذ كانت هذه أول ضربة موجهة إلى قلب العالم الإسلامي ، لفتت النظر إلى أهميته الكامنة ، وقيمته بالنسبة للتسابق الأوربي نحو السيطرة العالمية . ومع أن حملة نابليون هذه أخفقت في غرضها المباشر من احتلال مصر ، وقطع الطريق على الإنجليز إلى إمبراطوريتهم في الهند ، فإنها كانت نقطة تحول في التاريخ عامة ، وفي تاريخ اتصال الشرق بالغرب ، والعالم الإسلامي بأوروبا بصفة خاصة . وربما كانت الحملة الفرنسية من هذه الناحية من أبعد حروب نابليون أثراً وأبقاها ذكراً على الزمن .

وقد تتابع الضغط الأوربي والتوسع السياسي على حساب العالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر . ولم يكن غريباً أن يؤدي إطراد الضغط والتوغل في بلاد المسلمين وممتلكاتهم إلى رد فعل سياسي ، فنشأت في الربع الأخير من القرن الماضي حركة خطيرة كان على رأسها جمال الدين الأفغاني ، وهي حركة « الوحدة الإسلامية » التي رمت إلى تحرير البلاد الإسلامية وإعزاز جانبها دفعا للخطر الأجنبي . وقد فسرت هذه الحركة إذ ذاك تفسيرات مختلفة ، فقال بعضهم إنها إحياء لحركة التوسع الإسلامي القديمة ، وإنها تفتوى على خطر كبير وشر مستطير بالنسبة لأوروبا والمسيحية عامة . وقال بعضهم إنها وإن لم تستطع أن تعيد عهد السيف وأن تعلن الجهاد المسلح فإنها ستبعث روح التمصب ، وتغذي عناصر الحقد والكراهية التي لا بد أن تخرج الشرق والغرب في النهاية إلى التطاحن والخراب ، وقالت فئة قليلة إن هذه الحركة لا تعدو أن تكون نفخاً في الهواء يثير الزوابع المحلية ، ولكنه لن يستطيع أن يبعث في الشرق روح الجهاد ، كما بعثها ظهور الإسلام لأول مرة . والحقيقة أنها كانت حركة طليمية ، ونتيجة لازمة لما سبق به الغرب من توغل واستفزاز ، ولم يكن الشرق ولا الدين مسئولين عنها بأكثر من الغرب ومن السياسة . وليس أدل على أن الدافع السياسي الكامن في هذه الحركة كان أقوى من الدافع الديني انقلاصها من أنها ما لبثت — رغم تسميتها « بالوحدة الإسلامية » — أن تحولت وانقلبت بالتدريج في أوائل القرن الحالي إلى حركتين عنصريتين داخل العالم الإسلامي ، وهما : حركة الطورانية ، وحركة الوحدة العربية . وكانت

هذه الأخيرة موجهة ضد العثمانيين المسلمين بقدر ما هي موجهة ضد الغرب المسيحي .
والذى يعنينا فى شأن حركة الوحدة العربية أنها كانت تمثل المرحلة الثانية فى الوعى
السياسى الحديث للشرق العربى . ولم يكن هذا الشرق فى أوائل القرن الحالى قد أصابه كثير
من ضغط أوربا المسيحية ، فيما عدا مصر التى استولى عليها الإنجليز ، بل كان ذلك الشرق فى
جملته لا يزال تحت حكم العثمانيين بالفعل أو بالاسم . لذلك لم يكن هناك سبيل إلى أن تتخذ
الحركة العربية مظهراً دينياً ، وإنما هى قد ظهرت على حقيقتها منذ البداية . ولكنها كانت
بذلك أدعى إلى القوة ، وأدنى إلى الحقائق العملية من الحركة الأساسية الأولى ، فضلاً عن
أن العالم العربى كان أصغر كثيراً من العالم الإسلامى ، وكانت أجزاؤه أكثر تقارباً وتماسكاً ،
وشؤونه الاقتصادية أكثر تداخلاً وتشابكاً ، وثقافته أكثر وحدة واتساقاً من العالم
الإسلامى الكبير الذى يشمل الهندى والفارسى والتركى والعربى وغيرهم من ذوى الأقطار
التباعدة والمصالح المتفرقة ، والثقافات المختلفة ، والاتجاهات المتباينة التى بصعب الجمع بينها
فى كيان سياسى واحد .

لذلك كله نشأت حركة الوحدة العربية وهى أصحح للبقاء والنمو من الحركة الإسلامية ،
وقد أفادت الحركة الجديدة من الحرب العالمية الأولى عندما انحاز العرب إلى جانب الحلفاء
ضد تركيا التى انضمت إلى المعسكر الألمانى النمساوى . ومع ذلك فإن آمال العرب الواسعة ،
وما حصلوا عليه من وعود وعهود كثيرة لم يتحقق منها غير جانب ضئيل محدود . ذلك أن
الحرب التى أبرزت قيمة الموقع الجغرافى والعسكرى للشرق الآسيوى القريب أطمعت فيه
الدول المستعمرة وذات المصالح فى الشرق عامة . وقد جاهد العرب وناضلوا فى إزاحة سلطان
الأتراك . ولكنهم لم يرقوا إلى مكان السيادة إلا رقبياً جزئياً محدوداً ، وفى المناطق الداخلية
البعيدة من الجزيرة كمنجد ، أو المنزوبة وغير المعروفة كالبهن الأمل . أما السواحل العربية
والمناطق الهامة فى المرور والمواصلات ، أو الغنية بموارد الزيت وغيرها ، فقد امتدت إليها
الأيدى غارية سافرة ، أو مقفزة مستورة ، فكان فتح واحتلال ، وكان نفوذ وانتداب ،
وخرجت بريطانيا وفرنسا بنصيب الأسد ونصيب النمر ، بعد أن حاولت أمريكا أن يكون لها
يد ، ثم كفت عن ذلك وتقاعدت بعيدة عن الشرق ومشكلات الشرق .

وفى هذه الأثناء كان الوعى السياسى فى الشرق العربى قد دخل فى المرحلة الثالثة من
مراحل تطوره الحديث ، إذ أخذ الشعور القومى المحلى يتسرب إلى هذا الشرق بمختلف
أصقاعه وبيئاته خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، وأخذت فكرة « الأمة » تتبلور

في أوطان صغيرة وأقاليم محدودة . ولم يعد أساس فكرة « القومية » و « الأمة » الاشتراك في الدين ، كما كانت الحال في المرحلة الأولى أيام حركة الوحدة الإسلامية ، ولا الاشتراك في اللغة والثقافة ، كما كانت الحال في المرحلة الثانية إبان الأيام الأولى لحركة الوحدة العربية ، وإنما أصبح ذلك الأساس هو « الوطن » و « القومية الوطنية » التي تتصل ببيئة معينة وإقليم معين ، تعيش داخل حدوده جماعة بشرية تتشابه بين أفرادها المصالح ومقومات الحياة مادية ومعنوية ، ويكون من الميسور توجيه جهودهم والإعراب عن آرائهم بتلك الوسائل التي اصطفتها وأخذت بها الأمم والقوميات الحديثة في أوربا خلال الجيلين السابقين . وكانت شعوب الشرق العربي قد أخذت تدرك أن الظروف والأوضاع السياسية قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه من قبل . فمشروع الوحدة العربية لا يسهل تنفيذه في صورته النظرية ، كما أن الوحدة الثقافية العامة لا تكفي أساساً لقيام الوحدة السياسية والقومية ، خصوصاً إذا تشعبت المصالح المادية والنزعات القومية ، وإذا اختلفت مراحل الفضيح السياسي وتباينت نظم الحكم في مختلف الأقطار .

ولكن الحرب المنتهية ما لبثت أن جاءت بعنصر جديد ، أو هي بعبارة أدق قد عجلت ظهور هذا العنصر الجديد . فبعد أن كان الشرق الأدنى في الحرب العالمية الأولى ميداناً ثانوياً إذ به يصبح في الحرب الثانية ميداناً أساسياً من ميادين القتال ، تجمعت فيه القوات المحاربة بأعدادها الضخمة من أغلب أقطار العالم ، ودارت فيه ملاحم كبرى كن بعضها فاصلاً وحاسماً في تقرير مصير الحرب كلها . فبرزت قيمة هذا الإقليم الحيوية ، وزاد اهتمام الدول الكبرى بشؤونه العامة ، وبكثير جداً من شؤونه التفصيلية الخاصة ، ونبه ذلك أهل الإقليم إلى أن بلدانهم وأقطارهم تحتل موقعاً جغرافياً بالغ الخطورة من ناحية المواصلات العالمية ، وماتسبقت الأمم المتحاربة الكبرى في زحفها نحو هذا الموقع إلا لقيمته الفاصلة في كل ما يتصل بالسيطرة العالمية في الحرب والسلام على السواء . وسادام الأمر كذلك فإن مصائر الشرق الأدنى وتاريخه القابل ستبقى مرتبطة أشد الارتباط وأوثق بالشؤون العالمية والمصالح الدولية ، ولن يفيد في مثل هذا الموقف الدولي أن يكون لكل وطن صغير في الشرق العربي استقلاله القومي ، فقد لا يلبث مثل ذلك الاستقلال أن يذهب مع الريح ، التي قد تهب من الغرب أو من الشمال ، أو هي قد تعصف عاتية كالإعصار من جميع الجهات ، فتكون الطامة الكبرى ، وتأتي الريح العصرصر على كل شيء ، ويطوح بأهل المشرق إلى أسفل الدرج من جديد .

في هذه الظروف بدأ القاعمون على شئون أمم الشرق العربي يدركون ضرورة إيجاد نوع

من التعاون بينها جميعا لعمل ذلك بشد من أزرها ، ويقطع الطريق على بعض ذلك التنافس والتسابق بين الدول الكبرى على استغلال تفرق الكلمة بين أمم الشرق . وقد ساعد على هذا الاتجاه الجديد نحو التعاون أن بريطانيا التي تجمع لها من الخبرة والتجربة في شئون هذا الشرق ومن المصالح الحيوية فيه أكثر مما تجمع لغيرها من الأمم القوية ، قد أحست حاجتها إلى أن تعدل في سياستها التقليدية وإلى أن تسير الاتجاهات الجديدة قبل أن يسبقها الزمن ، فلم تعارض في ما بذله قادة الشرق العربي من مسعى في سبيل التعاون المنشود . . . وهكذا تهيأت الظروف ، وتسابقت الحوادث . حتى تم تأليف جامعة الأمم العربية ، التي نحن بصدددها الآن .

على أن من المهم أن نلاحظ أن هذه « الجامعة » العربية بتشكيلها الحالي تختلف عن « الوحدة » العربية بالمعنى السياسي المعروف ، وقد تقدمت شعوب الشرق العربي حديثاً نحو الاستقلال القومي ، ونظرت — أو نظر فريق منها على الأقل — إلى « الوحدة » السياسية على أنها رجوع إلى وراء ، وعلى أنها أمر لا سبيل إلى تحقيقه بالمعنى الضيق للوحدة ، بعد أن اتخذت هذه الدول الناشئة سبيلها إلى تحقيق الاستقلال القومي في كثير من الأشياء ، بل بعد أن أخذ كل منها بنظامه الخاص في الحكم والإدارة إلى حد لم يستطع قادة الشرق أن يفكروا حتى في إقامة « اتحاد » بين الأمم أو القوميات العربية على نحو ما نجد في الولايات المتحدة الأمريكية ، أو اتحاد الجمهوريات السوفيتية . وعلى ذلك لم يكن بد من الاكتفاء « بجامعة » تحتفظ فيها كل دولة بكيانها المستقل ، ولا ترتبط ببقية الأعضاء إلا بالمشاورة الحرة ، وفي حدود ما اتفق عليه الأعضاء مختارين ، تحقيقاً للمصالح المشتركة ، وضماناً لما عسى أن يصيب الأعضاء منفردين أو مجتمعين من خير لا بد أن يترتب على اجتماع كلهم في عالم لا تكاد الصيحات الفردية الضعيفة نجد فيه صدى ولا تردداً .

ومع ذلك فقد لا نبعد كثيراً عن الحق إذا نحن قررنا أن مشروع الجامعة ، كما أخذ به ، كان خير ما يمكن التوفيق به بين فكرة الوحدة من جهة ، وبين ما استجد على الشرق العربي وأقاليمه من وعى سياسي قومي وما اقتضته الظروف الدولية ونظام العالم الجديد من جهة أخرى وقد لا يبعد أن تثبت الأيام أن هذه الخطوة التي خطاها الشرق العربي كانت خطوة سديدة خطتها شعوبه في الاتجاه الصحيح ، وأن السياسة التي أملت لها لم تكن سياسة عاطفية متطرفة بقدر ما كانت سياسة عملية تقوم على الاعتدال وإدراك الحقائق . بل قد لا يبعد أن تكون الجامعة في قابل الأيام ، ورغم بعض الأغراض السياسية الطارئة ، أداة سالحة لتحقيق

التعاون الدولي في هذا الإقليم الذي يعتبر محكاً خطراً للعلاقات الدولية والعالمية ، وأن تكون فوق ذلك وسيلة صالحة لتوحيد الجهود واستكمال ما نقص من استقلال أكثر أعضائها الحاليين وتمهيد السبيل لاستقلال بقية الشعوب العربية التي لا تزال خارج الجامعة ، ولكنها تتوق إلى الانضمام إليها في يوم من الأيام .

وبعد فإن الشرق العربي كان منذ أقدم العصور مدرسة للإنسانية في كثير من الأشياء . ففيه نشأت غير واحدة من المذاهب القديمة ، وفيه نشأت الأديان السماوية ، ومنه انتشرت ذات اليمين وذات الشمال ، وفيه احتك الشرق بالغرب ، فتعارف الإثنان وتعلم كل منهما من الآخر بعض ما لم يكن يعلم . وقد مر الشرق العربي في تاريخه الطويل بكثير من التجارب والأحداث ، ولا شك أن تاريخه الطويل القابل سيحفل بمثل ما حفل به ماضيه ، وربما كان مرجع الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار في هذا الإقليم إلى أن بلدانه ذات تقاليد قديمة راسخة في الحياة والحكم والثقافة ، وكل جديد فيها لا بد أن يتسق مع القديم الذي لم يستطع الزمن أن ينسخه . ولذلك كان طبيعياً ألا تستقر النظم الجديدة في سهولة ويسر . ومع ذلك فإن الشرق العربي يمر الآن بتجربة يكاد يسبق بها الزمن ، فهو يحاول أن يوفق في نظامه السياسي بين القومية الضيقة التي تربط بوطن معين وأمانى قومية من الطبيعي ألا تخلو من بعض أنانية ، وبين التعاون الدولي في جماعة من الأمم المتقاربة وذات المصالح المشتركة . ولا بد أن يؤدي هذا التوفيق إن نجح إلى تهذيب الشعور القومي ، ولطيف روح العصبية الإقليمية ، على نحو يعلم الأمم الصغيرة كيف تعمل وتضحي من أجل جاراتها وزميلاتها ، فيما تنتسب إليه من جامعة أو جامعات ، هي مثال مصغر لما تسعى إليه الإنسانية من هيئات عالمية شاملة . بل لعل تجربة الجامعة العربية إن هي نجحت وتوطدت أركانها على مر الأيام — ونجاحها متوقف على معاونة العالم الخارجى بقدر ما هو متوقف على إخلاص أعضاء الجامعة وقبولهم التضحية — لعلها أن تكون مثلاً يحتذى في مناطق مشابهة من العالم ، كأمريكا اللاتينية التي تشترك أممها ، أو تكاد تشترك ، في اللغة والثقافة والمصالح العسكرية ، أو كأم جنوب شرق أوربا ، التي تشترك في الموقع الجغرافي والمصالح الاقتصادية ، وإن تباينت في الجنس والثقافة . . . ومن يدى لعل نجاح الجامعة العربية يكون درساً جديداً في التنظيم والعلاقات الدولية بضيفه الشرق إلى ما قدم للإنسانية في تاريخه الطويل من دروس .

سليمان عزيز

أستاذ الجغرافيا بجامعة فاروق الأول